العدّاءون والسعاة

في العصور الاسلامية

بقلم : كوركيس عواد

نشأ في أيام الجاهلية غير واحدٍ ممن اشتهر بسرعة العدْوِ والتفوّق فيه حتى ضرب المثل ببعضهم منهم «الشنفري» الشاعر المعروف ، و« تأبّط شرًّا » و « عمرو بن برّاق» فقيل في أوّلهم « أعدَى من الشنفري »[1]. ومنهم « السُّلَيْك » و « النَّشَر بن وَهْب الباهلي » و« أوفى بن مطر المازني » وقد سار المثل بأولهم أيضاً فقيل « أعدى من السليك »[2] وما نحن بسبيل تفسير مأتى هذين المثلين ، فانّ قصة اطلاقهما معروفة مدوّنة في أغلب كتب الأمثال المتداولة

أما في العصور الاسلامية ، فقد أصبنا أخباراً كثيرة تشير الى ما كان للعدّائين والسعاة من شهرة وخطر ، وما كان لهم من مواقف جليلة دلّت على طول باعهم في هذا الميدان

وقد اشتهر معزّ الدولة البويهي ، المتوفى سنة ٣٥٦ للهجرة (٩٦٦ م) بكونه « أوّل من أجرى السعاة بين يديه ، ليبعث بأخباره الى أخيه ركن الدولة سريعاً الى شيراز ، وحظي عنده أهل هذه الصناعة ؛ وكان عنده في بغداد ساعيان ماهران وهما فضل وبرغوش »[3]

ونظراً الى ما لقيه هذان الرجلان من تقدير الناس وإعجابهم بهما ، ذهبا « فقاما جميع السعاة ، وكان كل واحد منهما يسير في اليوم نيفاً وأربعين فرسخاً »[4]

فاذا اتبعنا قول بعضهم[5] أن الفرسخ يساوي خمسة كيلو مترات وسبعمائة وثلاثة وستين

---

(١) مجمع الامثال للميداني ١ : ٤٣٠ — ٤٣١ ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ ، وشرح المرزوقي للتبريزي ٣ : ٣٠٨)

(٢) مجمع الامثال ١ : ٤٣١)

(٣) البداية والنهاية في التاريخ لابن كثير ١١ : ٢٦٢ ، وفيه أن المعز أجرى السعاة بين يديه سنة ٣٤٤ هـ ، انظر ايضاً العقد الفريد ٣ : ٣٢٢ ، ص ١٦)

(٤) تاريخ الخلفاء ٢ : ٢٨٨ ، طبعة Nöldeke ، وهو فيه : فضل البرغوش

(٥) [illegible] Dictionnaire [illegible]

متراً ، بلغ ما كان يقطعه الواحد منهما في اليوم زهاء ٢٣٠ كيلو متراً ، وهي لعمري سرعة عظيمة لا تكاد تصدّق

وروت بعض المراجع التاريخية بشأنهما أن قد « تعصّب لهما الناس ، وكان أحدهما ساعي السنّة والآخر ساعي الشيعة » (١)

وممّن أدرك شهرة بعيدة بين السعاة، بركة بن محمود الساعي» فقد روى ابن الفُوَطي في حوادث سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) أنّ فيها « توفي بركة بن محمود الساعي ، المشهور بالسعي والعدو . وكان من أهل الحربية (٢) سعى من واسط الى بغداد في يوم وليلة . ومن تكريت الى بغداد في يوم واحد . وحصل له بسبب ذلك مال كثير وجاه عريض ، واتصل بخدمة الخليفة الناصر لدين الله وجعله أخيراً مقدّماً لرجال باب الغرّبة (٣) فكان على ذلك الى أن توفي » (٤)

ولا يخفى ان المسافة بين واسط وبغداد بطريق السيارة تبلغ نحواً من ٢٤٧ كيلو متراً ؛ كما ان المسافة بين بغداد وتكريت بطريق السكة الحديدية تبلغ ١٠٧ أميال ، أي نحواً من ١٧٢ كيلو متراً .

***

وقد روى شمس الدين محمد بن طولون الدمشقي ، نقلاً عن الأسدي « في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، قال الذهبي : وفي جمادى الآخرة ، جرى بركة الساعي من واسط الى بغداد في يوم وليلة ، وهذا شيء لم يسبق الى مثله ؛ وخُلع عليه خلع سنية وحصل له مال» . انتهى . وقال في سنة سبع وثمانين وخمسمائة قال ابن النجوري : وفي جمادى الآخرة، عَدَا بركة الساعي من تكريت الى بغداد في يوم، ولم يسبق إلى مثل هذا ، وحصل له خلع ومال طائل » (٥)

ومن طالت شهرتهم في مضمار السعي والعدو « معتوق الموصلي المعروف بكوثر الكلام » فانه في سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) جرى « من واسط الى بغداد في يوم وليلة سوى ساعة ،

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الاثير (٨ : ٤٢٥ طبعة توربيرج)

(٢) من محلات بغداد القديمة ، لها ذكر في كتب البلدان والخطط والتاريخ

(٣) يفتح أوله وتديه . كان أحد أبواب دار الخلافة لقطة ببغداد . راجع معجم البلدان (مادة : الغربة ٣ : ٧٨٣ طبعة وستنفلد)

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة (ص ٢٥ — ٢٦)

(٥) النجوم الزاهرة في الكتب الدينية (ص ٢٥)

وأُعطي خلعاً عدّة وأموالاً من الدولة والتجار، فحصل له عشرون فرساً وخمسة آلاف وأربعمائة دينار وخلع قوّمت بألف وسبعمائة دينار»[1]

أشار ابن الفوطي إلى أنّ الساعي معتوقاً هذا، جرى في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) «من دَقوق[2] ساعياً على قدمه، فوصل كشك[3] الملكية (ببغداد) ودخله، وكان الخليفة[4] هناك ومعهُ الشرابي وهو استاذه، ثم خرج من الكشك وعاد الى الوقف، ثم رجع الى الكشك، وقد تخلّف من النهار ساعة ونصف. فقبّل الأرض بين يدي الخليفة، فتقدم له بخمسمائة دينار، وأعطاه الشرابي ثلثمائة دينار، وحصل له من أرباب الدولة شيء كثير»[5]

وكان ممن أصاب سمعة بعيدة في العدو والسعي «علي بن الاربلي» وذلك على ما رواه ابن الفوطي في حوادث سنة ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م من انه سعى «من دقوقا إلى بغداد، فوصل بعد العصر، وفضل على معتوق الموصلي المعروف بالكوثر نصف ساعة، ودار حول الكشك شوطاً وخرج الى التفرّج عليه المستعصم بالله وأولاده وجلسوا في الكشك الى حين وصوله. وكان هذا المذكور مختصّاً بخدمة الأمير مبارك ولد الخليفة، فأمر له بفرس من مراكبه وخلعة وذهب، ودار من الغد في البلد بالطبول والبوقات، فحصل له شيء كثير»[6]

والذي يبدو لنا من كلام القلقشندي المتوفي سنة ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) أن أمر السعاة لبث جارياً برسومه ومظاهره إلى زمنه فقد قال: «واستمرّ حكم السعاة ببغداد إلى زماننا، حتى انّ منهم ساعيين لركاب السلطان يمشيان أمامه في المواكب وغيرها على قرب»[7]

ثم أضاف الى ذلك قوله: «وقد رأيتهما في خدمة السلطان احمد بن أويس[8] صاحب بغداد حين قدم مصر في دولة الظاهر برقوق فارّاً من تمر»[9]

وبعد ذلك وصف القلقشندي ما كان عليه السعاة في مصر فأجاد أحسن الإجادة بقوله:

---

(١) دول الاسلام للذهبي (٢ : ١٠٠ طبع حيدر اباد)، والمعلمات الجزئية (ص ٢٥)

(٢) دقوق - وتقال لها قديماً دقوقا ودقوقاء: تسمى اليوم طوز خورماتو تصحيفاً عن التسميات السابقة - وهي مركز ناحية في جنوب مدينة كركوك بالعراق، على بعد ٢٨ ميلاً منها. والمسافة بين دقوق وبغداد زهاء ١٧٠ ميلاً

(٣) الكشك لفظ تركية تعني القصر أو البناية تتخذ للتفرج. وأصلها كوشك

راجع Redhouse: Turkish and English Lexicon, (Constantinople, 1890; p. 1595)

(٤) هو المستعصم بالله العباسي (٥) الحوادث الجامعة (ص ٢٩٩) (٦) الحوادث الجامعة (ص ٣٣٤)

(٧) صبح الاعشى (١١ : ١٢٧) (٨) من سلاطين الدولة الجلايرية بالعراق. مات سنة ٨١٣ هـ

(٩) صبح الاعشى (١١ : ١٢٧)

« أما الديار المصرية ، فانه لا يتعاطى ذلك عندهم الا خفافُ الشباب من مكاتبة الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو ، الا انه اذا طرأ مهمّ سلطاني يقتضي إيصال مُلطَّف مكاتبةً من الابواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعذّر ايصاله على البريد لحيلولة عدوّ في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لمارض ، انتدب كاتب السرّ بأمر السلطان من يعرف بسرعة المشي وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك المُلطف الى المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كتب الكتابان فأكثر الى الشخص الواحد في المعنى الواحد ، ويجهز كلّ منهما صحبة قاصد منفرد خوف ان يعترض واحد فيمضي الآخر إلى مقصده كما تقدم في بطائق الحمام الرسائلي وقد اخبرني بعض من سافر في المهمات السلطانية من هؤلاء انهم في الغالب عند خوف العدوّ يمشون ليلاً ويكمنون نهاراً ، واذا مشوا في الليل يأخذون جانباً عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتى لا يسمع لهم حسّ فاذا طلع عليهم النهار كمنوا متفرقين مع مواعدتهم على مكان يتلاقون فيه في وقت السير » (١)

ولم نقف فيما انتهى الينا من أخبار ، على ما كان يتقاضاه السعاة من أجر معلوم على أسفارهم ولا شك ان مقدار ذلك الاجر كان يختلف باختلاف الزمان والمكان : فالعدو لا يكون في فصول السنة على وتيرة واحدة ؛ فقد يتعسر في بعضها ويتيسر في بعضها الآخر كما انهُ يكون في اوقات الحروب والفتن أصعب منالاً منهُ في أيام السلم والرخاء . ولا يغربنّ عن البال ما كان يلاقيهِ السعاة في سيرهم من تصدي البدو لهم وتعرض بعض الناس لهم بصنوف الشر والاذى ، من قتل وسلب وأسر ، وما كان يترتب على ذلك من تأخير نقل الاخبار او وصولها الى أيدي العدو ، او ذيوعها بين من لا ينبغي ان يقف عليها ، وفي ذلك كله من الضرر والبلاء على مرسليها ما فيه

***

وخلاصة القول ، ان العَدْوَ في أيام الجاهلية كان عملاً فرديًّا لا فائدة منهُ تذكر للمجتمع . ثم انتظم حاله في العصور الاسلامية ، فصار الملوك والولاة والاعيان والتجار وغيرهم يستفيدون من أوتي سرعة السير فيستخدمونهم في شؤونهم المستعجلة وأشغالهم التي في تأخيرها فساد أمرهم . فكان من ذلك انتشار السعاة العدّائين على ما أوضحناه في مطاوي بحثنا

(بغداد)

(١) صبح الاعشى : ٤ : ٢١٢٧ . ونجد اختصار هذا الوصف في ضوء الصبح المنير للقشندي (١ : ٤٦)